



بورقيبة بين «الوحدة القوميّة» والقومية العربيّة

الشركات الوطنية تسمية الشركة القومية للنقل
أو السكك الحديدية أو غيرها.

مصطلحات ومفاهيم

ونفتح هنا قوسين للإشارة للجهاز
المفاهيمي والمصطلحي وتطوره عبر الزمن.
يعرف لسان العرب مصطلح «وطن»
«بمسطق الرأس والأرض التي اتخذت محلا
ومسكنا للإقامة بها»

وهذا هو المدلول الذي حامت حوله مختلف
الاستعمالات اللفظية في النصوص التاريخية
التونسية من القرن 17 إلى 19: الوطن
بمعنى المدينة - الوطن بمعنى تراب القبيلة
- الوطن بمعنى تراب السيادة - الوطن بمعنى
الانتماء الجغرافي بعد الهجرة - الوطن بمعنى
الانتساب الإداري - الوطن بمعنى الجهة.

المرجعية الدينية

ودون الرجوع بعيدا إلى القرن السابع عشر،
فإن المصطلحات التي كانت أكثر تداولاً في
كتابات مصلحي القرن التاسع عشر من أمثال
خيرالدين وابن أبي الضياف وبيرم الخامس
كانت تحوم حول المرجعية الدينية حينما كانت

عنوان «الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية
قومية جديدة».

وأصدر مناضل قومي آخر من الأوفياء
هو أيضاً للزعيم الراحل صالح بن يوسف،
وهو إبراهيم طوبال «البديل الثوري»، كما
أصدر الوزير السابق محمد المصمودي كتابه
«العرب في العاصفة» والخيط الرابط بين تلك
الإصدارات، اتهام الرئيس التونسي السابق
بالتنكر لعروبة تونس، والتنذيل للغرب.

الشخصية التونسية

وكرد فعل على تلك المواقف جند النظام
البورقيبي نخبته الفكرية، ومثقفيه لتنفيذ
المقولات الوحودية ونسف مفهوم «القومية
العربية» بالتركيز على الذاتية التونسية، وأبرز
المؤلفات كانت للوزير الأول الأسبق محمد
مزالي «الشخصية التونسية: خصائصها
ومقوماتها» حيث قام بالتركيز على مفهوم
«الأمة التونسية» لدحض مفهوم «القومية
العربية».

وكان النظام البورقيبي عمد منذ مطلع
الاستقلال إلى إطلاق صفة «القومية»، على
كل ما هو مؤسسات وطنية، فكانت تطلق على

محمد علي الحباشي*
@.....

تونس / المغرب الموحد

«إن ما يربطنا بالعرب ليس إلا من قبيل
الذكريات التاريخية وإن مصلحة تونس أن
ترتبط بالغرب وبفرنسا بصورة أخص وإن
مرسيليا أقرب لنا من بغداد أو دمشق أو
القاهرة، وإن اجتياز البحر الأبيض المتوسط،
أسهل من اجتياز الصحراء الليبية»

هذه التصريحات المنسوبة للزعيم
الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، وغيرها وردت
في مذكرات المناضل القومي العربي الطاهر
عبد الله من منفاه في أواسط السبعينيات تحت

الخلافة الإسلامية في أوج قوتها وإشعاعها في إسطنبول.

وانبثق مصطلح «الأمة التونسية» إثر تصدع الإمبراطورية العثمانية لتنشأ بذلك ظاهرة التفتت والقومية القطرية.

مفهوم «الأمة»

وبتداخل المفاهيم وتشابكها اختلفت المواقف وتباينت حول مفهوم «الأمة» خاصة بعد ما شاع استعمال لفظة NATION في الغرب، وترجمتها الأمة أو الوطن.

لغويا وفي لسان العرب «أمة الرجل قومه وقوم كل رجل شيعته وعشيرته، أما العشيرة فهي بنو الآباء الأندون ثم القبيلة، أما الشيعه فهم أتباع الرجل وأنصاره».

أما التعريف الذي تبنته الأكاديمية الفرنسية، فهو «الأمة هي معشر السكان الذين ينتمون إلى نفس الدولة ويعيشون في نفس البلاد ويخضعون لنفس القوانين ويتكلمون نفس اللغة».

ويقطع النظر عن المدلولات اللغوية فإن الخلافات الفكرية والإيديولوجية التي لم يتم فيها الحسم بعد بين أصحاب الميول القومية والميول القطرية، لها جذور تاريخية لا يسمح المجال باستعراضها لكن نشير إلى أن القومية العربية لم تجد في البلاد التونسية عوامل التجذر والانتشار، خلافا لبعض بلدان المشرق، حيث وجد العرب غير المسلمين في القومية العربية ضاللتهم، أما في البلاد التونسية فلا توجد فوارق من هذا القبيل فكل التونسيين أو الأغلبية الساحقة هم من العرب المسلمين المالكيين.

وحتى ثنائية العرب والبربر فقد تم تجاوزها منذ آمام بعيدة، رغم ما دأب عليه الاستعمار من محاولات لتغذية النعرات القديمة.

العرب والبربر

للتذكير فإنه لم تمر سوى ستة عشر عاما على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى كانت دعوة الإسلام قد تجاوزت البلاد الليبية، وتوغلت في قطر إفريقية وهي البلاد التونسية اليوم.

ولم يلبث أن انصهر العرب والبربر، ومن أفصح الأمثلة التي حفظها لنا التاريخ أن الجيش الذي فتح إسبانيا في القرن الأول للهجرة كان على رأسه اثنان من القادة، الأول

عربي وهو موسى بن نصير، والثاني بربري وهو طارق بن زياد.

ولم زل الجبلان الواقعان على طرفي المضيق الفاصل بين إفريقيا وأوروبا يسمى أحدهما جبل موسى ويسمى الثاني جبل طارق.

وهكذا امتزج المستعربون بالعرب، حتى زال كل تمييز تماما في وحدة وتجانس قوامهما العروبة والإسلام.

وكان اكتمال الوحدة في ظل الدولة الصنهاجية (الزيرية) في القرن الرابع هجري، بعد ما قامت قبيلة صنهاجة من وراء الصحراء بحركتها الإسلامية الكبرى، حركة المرابطين التي وحدت المغرب الأقصى والوسط وأنقذت الأندلس من الخطر الماحق، ثم خلفتها قبيلة مسمودة البربرية فأقامت الدولة الموحدية على وحدة متينة شملت المغرب العربي كله.

وإذ لم تلبث أن تعددت الدول وتقرعت بقيام الدولة الحفصية في تونس، والدول التي قامت بعدها في الجزائر والمغرب، فإن الروابط الوجدانية ظلت قائمة صامدة في وجه صروف الدهر وتقلباته.

في منطقة النفوذ الاستعماري

وانفصلت الإيالة التونسية عن البلاد العربية الإسلامية إثر احتلالها سنة 1881، لتدخل بذلك منطقة النفوذ الاستعماري ومحاولات تقويض مقوماتها.

لكن جذوة الانتماء للأمة العربية والإسلامية ظلت حية راسخة، وساهم شق من الوطنيين التونسيين بقسط كبير في نضال أجوارهم في ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي الفاشي، وفي الجزائر ضد الاستعمار الاستيطاني الفرنسي، وحتى في صفوف المجاهدين المتطوعين لنصرة فلسطين عام 1948.

الرئيس الراحل

جمال عبد الناصر

أحرزت تونس استقلالها الداخلي يوم 3 جوان 1955، وظل الزعيم صالح بن يوسف يناهز بالاستقلال التام ومواصلة الكفاح المسلح وتوحيد ذلك الكفاح مع الثورة الجزائرية وجيش التحرير المغربي.

وكان لثورة 23 يوليو 1952 في مصر، وتبنيها قضية تحرير المغرب العربي ووحده تصداها وتأثيرها في النفوس، وتحول الزعيم جمال عبدا لناصر إلى رمز للعروبة وأمجادها عند إقدامه على تأميم قناة السويس في

صائفة 1956، فكان العدوان الثلاثي الذي زاد المشاعر الوطنية تأججا في كافة أرجاء الوطن العربي.

«قضية» بن يوسف

في تلك الفترة بالذات، كان الزعيم صالح بن يوسف لاجئا في القاهرة، وهو ما أثار حنق الزعيم الحبيب بورقيبة، فتوترت العلاقات بين البلدين، إلى حد أن قطع الرئيس بورقيبة العلاقات الدبلوماسية مع الجمهورية العربية المتحدة في شهر أكتوبر من سنة 1958.

وإذا كان سبب الخلاف هو «قضية» صالح بن يوسف، فإن الجوهر يعود إلى التباين الجذري في المواقف والتصورات بين الرئيس جمال عبدا لناصر الذي كان يدعو إلى «أمة واحدة من الخليج إلى المحيط» والرئيس الحبيب بورقيبة ونظرته البراغماتية واعتماد فكرة الأمة التونسية.

وحتى بعد عودة المياه لمجاريها بين البلدين، وزيارة الرئيس عبدا لناصر لتونس بمناسبة الجلاء عن بنزرت في 15 ديسمبر 1962، ثم زيارة الرئيس بورقيبة للجمهورية العربية المتحدة ضمن زيارة مطولة للشرق الأوسط وجنوب شرق أوروبا من 16 فيفري إلى 8 أفريل 1965، فقد ظل الرجلان على طرفي نقيض.

ففي ساحة الجمهورية بالقاهرة وبينما كان الرئيس جمال عبدالناصر يشرف على احتفالات الوحدة التي كانت انفضت بين مصر وسوريا قبل ذلك بسنوات ويلهب حماس الجماهير بشعارات الوحدة والقومية العربية والأمة العربية الواحدة، ظل الرئيس بورقيبة على موقفه من الحديث عن الأمة التونسية، رافضا مبدأ الوحدة منبها إلى أن الأوضاع العربية لم تتوفر فيها الشروط اللازمة التي يقتضيها التوحيد، مناديا بضرورة توفير تلك الشروط حتى لا تقع في ما سبق أن وقع فيه غيرنا في إفريقيا والعالم العربي نتيجة لعدم اجتماع الأسباب التي تقوم على أساس قاعدتها الواحدة. ■

* كاتب صحفي محلل

سياسي تونسي